المخلوقات الحارسة لبوابات الشرق القديم[١]

أيمن اسمندر[٢] **أ.د. عبد المنان شما[٣]**

الملخص

أبدع إنسان الشرق القديم الكثير من الأعمال الفنية والتي ضمنها الكثير مما يجول في ذهنه وخياله من رؤى وأفكار.

كانت المخلوقات الخرافية والمشكلة من مزج مجموعة مخلوقات مع بعضها بعضاً هي واحدة من إنجازات ذهنيته وخياله الجامح.

وقد حوت الأعمال الفنية الجدارية وغير الجدارية من تماثيل ولوحات ومجوهرات وعاج وعظم وخشب وغيرها من المواد التي استخدمها لإنجاز هذه القطع الفنية.

ففي الحضارة الآشورية ظهرت الثيران المجنّحة ذات الرأس البشري المتوج (اللاماسو Lamasu) وقد وقفت هذه المنحوتات الرائعة على أبواب القصور ومداخل القلاع قامت من خلال موقعها هذا بالتعبير عن عظمة آشور وسطوت ملوكها وبث الرعب والرهبة في قلوب الأعداء بشيء أشبه بالسحر، كما كانت دعامة للمداخل بسبب ضخامة كتلتها الحجرية.

في سورية القديمة ظهرت مخلوقات العنقاء والغريفن والسفنكس السوري الفينيقي وهو مخلوق يحمل بعض الملامح الفرعونية من ناحية التاج وغطاء الرأس، وأما الجزء البشري فهو رأس وصدر أنثى بعكس أبي الهول المصري المشكل من رأس أحد الفراعنة الذكور وجسد أسد لكن غير مجنح.

[١] أعد البحث في سياق رسالة الدكتوراه للطالب أيمن اسمندر بإشراف الأستاذ الدكتور عبد المنان شما.

[٢] قسم التصوير- كلية الفنون الجميلة- جامعة دمشق.

[٣] أستاذ- قسم التصوير- كلية الفنون الجميلة- جامعة دمشق.

بنى الفراعنة أبا الهول العملاق وهو ينظر إلى الشرق ومن خلفه أهرامات الجيـزة الثلاثـة (خوفو – خفرع – منقورع) وقد رويت حول هذا العملاق الحجري الكثيـر مـن الأسـاطير والخرافات وعن الهدف منه والمهمة التي أنشئ من أجلها.

إن المخلوقات الخرافية في الشرق القديم من "اللاماسو" المجنح والجنيـات الحارسـة فـي آشور إلى العنقاء والسفنكس والغريفن والكباش المجنحة في سورية وصولاً إلى أبي الهول المصري في وادي النيل لم تكن إلا جبابرة عظيمة معنية بحراسة كنوز هذا الشرق المعرفية والعرفانية، وحراساً للعقائد والأسرار والأساطير وحراساً لبوابات هذا الشرق العظيم.

إن الصورة أو العمل الفني هي حالة بصرية تبعث فينا إحساسـاً جوهريـاً بالمتعـة، والشعور بهذه المتعة أُختلف حوله وحول منْشَئِه وأسبابه ومصادره.

فقد عد أنصار المذهب الذاتي الشعور بالجمال ينشأ في النفس لوجود علاقة بين العقل الشاعر والشيء الذي نعتقد بأنه جميل، وعندما توجد هـذه العلاقـة يوجـد الشـعور بالجمال بل الجمال نفسه[١].

والحكم الجمالي مرتبط عادةً بعدة عوامـل، وعناصـر تسـهم فـي صـدور هـذا الحكم والتقييم المتعوي الجمـالي لهـذا الشـيء أو ذاك، فهنـاك شخصـية الفنـان بكل ما تضمه من أفكار، وعقائـد وثقافـات، وخيـال خصـب، وألـوان ممتزجـة فضلاً عن البيئة التي يحيا فيهـا وبصـماتها علـى نـواحي شخصـيته ونتاجاتـه البصرية، وهناك "عملـه الفنـي"، والظـروف المحيطـة بإنتاجـه، ومـدى قـدرة الفنان على تثبيت لحظات هاربة في الزمن، ثم عرضها بعـد مرورهـا بـ ـ "فلتـر الفنان" أمام حس يتلكأ في استمتاعه بمـا يـرى، أو أمـام عقـل يحـب أن يتأمـل على مهل.

وقد يقدم لنا العمل الفني إحساساً عارماً بالرهبة، والقـوة ،والجـلال ،ويشـعل فينـا مخاوف الغموض، والشـعور بالرعـب مـن تكوينـات لمخلوقـات ركبـت مـع بعضها بعضاً بحيث تعطي مخلوقاً خرافياً لـم يكـن ليوجـد إلا فـي خيـال هـذا الفنان لكنه قام بـ ـ "إنجازه" ليخدم هدفاً محدداً وواضحاً.

وقد يكون العمل الفنـي بحـد ذاتـه دعايـة شـمولية للملـوك والأبـاطرة وقـادة الجيوش بحيث يخلد أعمالهم وإنجازاتهم بشكل غالباً مـا يكـون مبالغـاً فيـه مثـل آشور بانيبال، وسرجون الثاني.. حيث نخلد ذكـراهم بعـد ممـاتهم بنُصـبٍ تـذكر بهم على مر الزمان مثل أبي الهول وأهرامـات الجيـزة، وقصـور ملـوك آشـور وزيقوراتهم.

فقد حوت الأعمال الفنية الجدارية وغيرهـا مـن تماثيـل، ولوحـات، ومجـوهرات وعاج، وعظم، وخشب وغيرها من المواد التـي كانـت تسـتخدم كحامـل للقيمـة الفنية. حوت الكثير من المخلوقات الخرافية المجنحة وغيـر المجنحـة والتـي تـم تركيبها من عدة حيوانات بحيث يكـون النـاتج مخلوقـاً خرافيـاً يحـوي صـفات المخلوقات التي شُـكِّل منهـا، فضـلاً عـن رمزيتـه الغامضـة عمومـاً، والتـي سأحاول في السطور القادمـة إلقـاء بعـض الضـوء علـى وظيفتهـا السـرانية، وبعدها الروحي.

عثر في خرائب آشور القديمـة علـى قطعـة عاجيـة تعـود للمرحلـة الآشـورية الوسطى[٢] أي: إلى بداية بعث الدولـة الأشـورية بعـد سـقوط الدولـة الميتانيـة عام 1400 قبل الميلاد، وقد كانت محفوظة فـي المتحـف العراقـي الـوطني قبـل الغزو الأمريكي الغاشم ونهبه لمحتويـات هـذا المتحـف، واختفـاء الكثيـر مـن قطعه الثمينة.

ويبدو أنها أي: القطعة العاجية كانت زينة لقطعـة مـن الأثـاث الملكـي وشـكلت إفريزاً بارتفاع ٢٢ سم، مؤلفاً من حوافز متكـررة مـن أشـجار مرسـومة بشـكل تخطيطي تفصلها عن بعضها ثيران مجنحة، تلك الثيران التـي تحولـت فيمـا بعـد إلى اللاماسو الشهيرة في العصر الآشوري الحديث.

وقفـت هـذه المنحوتـات الشـكل (1) الرائعـة علـى مـداخل أبـواب القصـور والحصون، والقلاع، و قامت من خلال موقعهـا هـذا بعـدة مهـام: أهمهـا كـان التعبير عن فكرة عظمة آشور، وملوكها، وسـيادتهم علـى العـالم بأسـره. ثانيهـا كان بث الرعب والخوف في قلوب من يحـاول المسـاس بحـدود هـذه المملكـة: تلك الحدود التي كانـت مكانـاً لتحركـات جيـوش الآشـوريين المسـتمرة ضـد الأعداء المحيطين بالمملكة.

فقد أحاط الأعداء بالقصور الملكيـة، وتحينـوا الفرصـة لاقتحامهـا، ولصـد هـذه القوى المعادية، وإيقافهـا فـي الخـارج، لجـأ الملـوك الآشـوريون للممارسـات السحرية، وكانت أزواج الـ لاماسو Lamasu المنحوتـة فـي الصـخر والجاثمـة أمام البوابات، والمشكلة من هيكل ضـخم لثـور مجـنح بـرأس بشـري متـوج، ملأت نظراته الساهرة دوماً فـي قلـب كـل مـن وقـف أمامهـا رعبـاً، وخوفـاً وشعوراً بالهيبة والجلال. تعتمر هـذه الكائنـات ذات الشـعر واللحـى المعقوصـة بأناقة على رؤوسها عمامات طويلة ذات قـرون، وهـي العمامـات التـي توجـت رؤوس الآلهة في الشرق القديم لكنها كانت بمنزلة تنانين أكثـر مـن كونهـا آلهـة، لأن الآلهة قلما صورت في الفن الآشوري[٣].

واللاماسو كمصطلح هو كلمـة سـومرية أصـلها (لامـا) يقابلهـا فـي الأكاديـة (لاماسو) وتدل على معبودة أنثى يخيل أنها كانـت راعيـة للإنسـان دائمـاً هكـذا معبودة كانت شائعة دون اسم وكـان المـذكر منهـا Alad فـي السـومرية وفـي الأكادية Sedu .

في العصر السومري الحديث ، والعصر البـابلي القـديم، وفـي المرحلـة الكاشـية أصبحت تصور المعبودة على شـكل متناسـق وتوضـع أمـام المتعبـدين وكانـت دائماً ترتدي (تنورة) لها حافات وتكون بحالة رفع اليدين. الشكل (2)

فيما بعد أصبح المصطلح Alad Lammu وأصـبح مرتبطـاً بـ ـ كـائن لـه رأس إنسان وجسم أسد عملاق وكانـت مهمتـه حراسـة بوابـات القصـور الآشـورية والمعابد، وأصبحت المعبودات الإناث من هذا الكائن تسمى Apsasu. [٤]

فضلاً عن هذا البعد السحري لهيئات اللاماسو والبعد الروحـي كانـت لهـا أيضـاً مهمة أخرى ألا وهي ركائز رئيسية لعقـود البوابـات كونهـا مشـكلة مـن كتـل حجرية صلبة وضخمة. حيث كانت ترتفع إلـى أكثـر مـن خمسـة أمتـار وتـزن أكثر من ثلاثين طناً[5].

من الناحية الفنية تعد الطريقة التي نفذت بهـا هـذه الأعمـال الحجريـة الضـخمة طريقة مبتكرة وإبداعية بكل معنى الكلمة فقد اسـتطاع النحـاتون أن يمزجـوا مـا بين النحت بالأبعاد الثلاثة والنحت الجـداري (الروليـف) لأول مـرة فـي تـاريخ الفن. فقد برزت في نحت نافر عميق من كتلة الجـدار الصـخرية. لكـن موقعهـا تطلب معالجة الشكل كمنحوتة تامة بالنسبة للقادم باتجـاه البوابـة حيـث يجـب أن تظهر هذه المخلوقات بالنسبة لهذا القادم كعمل نحتـي حـر متكامـل ومواجـه لـه بشكل جبهي، ولكن في اللحظة التي يدخل فيها هـذا القـادم البوابـة تصـبح هـذه المنحوتة على يمينه ويساره، وهنا قـام الفنـانون بنحـت جسـم اللاماسـو بشـكل نافر وهنا بالضبط تكمن الحالة الإبداعية في هذه الأعمال النصبية الضخمة.

حيث تمت ملاءمة الشكل من نقطتي مراقبة محتملتين، وعدم الاكتفاء بواحدة.

وتبعاً لهذه التقنية فلكل هيئة "لاماسو" خمس قـوائم. كانـت فقـط اثنتـان مـرئيتين من الأمام وأربع في أثناء الوقوف والنظر من زاوية معينة.

ومن ثم فإن هذه الهيئات الحجرية خصصـت للرؤيـة إمـا جانبيـاً فتبـدو بشـكل روليف أي نحت بارز، وأما جبهياً فتبدو كعمل نحتي كامل.

كانت هذه الهيئات واحدة من مميزات الفن الآشـوري اجتمعـت فيهـا فـي الوقـت نفسه كل مزايا الروليف الآشوري، وحيث أنجـزت بدقـة متناهيـة وبـذلك القـدر من التقيد بالتفاصيل والتشكيل المـتقن لكـل خصـلة مـن الشـعر أو ريشـة فـي الجناح، ومنذ اللحظة الأولى للوقـوف أمـام بوابـة القصـر الـذي كـان صـرحاً عظيماً منحوتاً، أطل الكمال التقني لفن النحت الآشوري بكامل بهائه.

فقد عرف الفن الآشوري فضلاً عن "لاماسـو" مخلوقـات خرافيـة أخـرى كانـت ذات مهام مختلفـة مثـل "الـروح الحارسـة protective spirit" المجنحـة التـي غالباً ما تصور مـع الملـوك و أشـجار الحيـاة المقدسـة Sacred Tree ممسـكة

بإنـــاء بإحـــدى يـــديها وكـــوزا بالثانيـــة، تـــرش منـــه الحـــاكم دلالة التقديس. الشكل (3).

قام الفنان الأشوري بتصـوير هـذه الـروح الحارسـة protective spirit علـى شكل إنسان برأس نسر جارح مع مراعـاة كـل مزايـا الفـن الآشـوري ،حيـث برزت العضلات و تفصيلاتها بشكل يوحي بـالقوة والعظمـة، كمـا ارتـدت هـذه الروح الحارسة الملابس الآشورية ذات الشرار يـف التـي تـزين أطـراف الـزي وتزينت بالحلي والمجـوهرات ذات الطـراز الآشـوري فـي المعصـم و العضـد والرقبة فضلاً عن خنجرين صغيرين.

كما استخدم الفنان الأسلوب الآشوري التقليـدي فـي تصـوير الشـعر المعقـوص والريش الطويل، وقد عثر على هذه اللوحـة الجداريـة (الروليـف) فـي خرائـب نمرود القديمة في القصر الشمالي الغربي -الغرفـة رقـم 1 ورقـم اللوحـة (17) وهي محفوظة في المتحف البريطاني حالياً.

ننتقل للحديث عن المخلوقات الفينيقيـة الخرافيـة، فقـد عـرف الفينيقيـون عـدداً من هذه المخلوقات وكان لكل منها مواصـفات ونمـاذج محـددة أدت دوراً كبيـراً في الميثولوجيا السورية عمومـاً والفينيقيـة خصوصـاً مثـل السـفنكس السـوري والعنقاء و الغـريفن griffin وغيرهـا مـن المخلوقـات الخرافيـة وحتـى هـذا السفنكس كان له عدة أنواع نذكر منها:

١. السفنكس السوري المزدوج.الشكل (4)
٢. السفنكس بوجه وصدر امرأة وجناحي نسر وجسم أسد.الشكل (5)
٣. السفنكس بوجه رجل وجناحي نسر وجسم أسد.الشكل (6)

فضلاً عن السفنكس هناك الغـريفن Griffin، ومخلـوق آخـر بـديع المنظـر درج الفينيقيون على تصويره علـى مجـوهراتهم، وهـو بـرأس كـبش، وجسـم أسـد وجناحي نسر، وقد وجـدت قطعـة عاجيـة تضـم مخلـوقين مـن هـذا الطـراز

متقابلين وبينهما شجرة الحياة. حيث تـم العثـور علـى هـذا العمـل الفنـي فـي أرسلان طـاش وينسـبها معظـم الأكـاديميين ومـنهم سـاباتينو موسـكاتي إلـى الصناعة الفينيقية حيث كانت هذه العاجيات جزءاً من الهـدايا الثمينـة التـي كـان يرسلها الفينيقيون إلى ملوك آشور(٦).

ويبدو هذا العمل الفني متقناً في مظهره ويغلب عليه التوازن والدقة.

قام الفنان بتوزيع المخلوقين على جانبي شـجرة الحيـاة المقدسـة المتوضـعة فـي وسط هذا العمل الذي هو عبارة عن قطعة مستطيلة تمامـاً علـى طرفيهـا شـكلان نباتيان يتناغمان مع شكل شجرة الحياة في المنتصف.

من ناحية الخطوط المكونة للشـكل تبـدو الخطـوط قويـة وواثقـة تبنـي الشـكل وتجعله يوحي بالقوة، والعظمة، وقـد جعـل الفنـان قرنـي رأس الكـبش يتجهـان بموازاة الفك أو جانب الوجه، ثم ينحنيـان نحـو الأسـفل، وهـذا التحـوير الفنـي أعطى جمالاً ملفتاً للشكل، كما زين الصـدر بخطـوط قوسـية متوازيـة حصـرت فيما بينها مساحات متصاغرة.

أما الجناحان، فقد قام الفنان بتقطيعها إلى ثلاثة قطاعات متباينة الحجم.

في القطاع الأول: وهو الأصغر فقد تشكل مـن مجموعـة دوائـر صـغيرة أشـبه بالحراشف السمكية، أما القطاع الثاني: فيبدأ من خلـف الطـرف الأمـامي لجسـيم الأسد بشكل مربعات متجاورة، ثـم تسـتطيل رويـداً رويـداً. .. القطـاع الثالـث: مطابق للثاني لكنه أكثر استطالة وحجماً. وينحني في آخـره نحـو الأعلـى معطيـاً إيحاء جمالياً.

تبدو ملامح القوة بارزة علـى جسـم هـذا المخلـوق مـن خـلال تأكيـد الفنـان العضلات وتفصيلاتها. ويبدو أن القطعـة العاجيـة الفـاخرة التـي نتحـدث عنهـا كانت تناسب الملك المهداة إليه. ملك يقدس القـوة قبـل أي شـيء آخـر. الشـكل (7)

أما السفنكس الفينيقي فقد وصلنا عمـل نحتـي (روليـف) يعبـر عنـه بوضـوح شديد ويعود هذا العمل (الشـكل 8) إلـى النصـف الأول مـن الألـف الأول قبـل الميلاد وقد عثر عليه في جزيرة أرواد ممثلاً على قطعـة مـن الالباسـتر بقيـاس 61سم وعرضها 32 سم، وهومحفوظ في متحف اللوفر في باريس حالياً.

اعتلى رأس هذا السفنكس تاج مصـر الموحـدة أو التـاج المـزدوج وهـذا يـدل على التأثر الفينيقي ببعض الرموز الفنية المصـرية المنشـأ إلا أن هـذا السـفنكس يختلف عن أبي الهول أو السفنكس المصري في الكثيـر مـن النقـاط مثـل وجـود الأجنحة فهو بهذا سفنكس مجنح يتشابه مع السفنكس الآشوري "اللاماسو".

فضلاً عن كون الجزء البشري من هذا السفنكس يمثـل رأس وصـدر أنثـى وهـو بذلك يختلف عن السفنكس (أبي الهول) الـذي يمثـل رأس رجـل بـل إنـه يمثـل رأس أحد الفراعنة، وسأورد تفاصيل هذه الفرضية عنـد الحـديث عـن السـفنكس المصري. الشكل(9)

نُحتَ هذا السفنكس الفينيقي بوضعية الجلوس لكن ذيله نُحـتَ بشـكل يختلـف عـن أبي الهول بحيـث نلاحـظ أن الفنـان رفـع الـذيل وأعطـاه شـكل حـرف (S) بالإنكليزية وهي طريقة وجدت فقط في السفنكس الفينيقي على ما أعتقد .

والحقيقة أن وجود رموز شـجرة الحيـاة المقدسـة فـوق هـذا السـفنكس يؤكـد المقولة التي تعد أن السفنكس أو المخلوقات الخرافيـة عمومـاً فـي الشـرق القـديم كان لها دور الحارس لكنوز المعرفة، والعرفـان؛ حيـث دأبـت الفنـون الجميلـة في الشرق القديم في تخليد عشـتار مـن خـلال رمزهـا الشـهير الشـجرة عـن طريق معالجتها لموضوع شجرة الحياة المقدسـة التـي تظهرهـا الأعمـال الفنيـة بشكل زخرفي تبسيطي جميل وعن يمينها ويسارها مخلوقات خرافية .

ومن المخلوقات الخرافيـة أيضـاً التـي اعتـاد الفينيقيـون تصـويرها ونحتهـا وصياغتها علـى مجـوهراتهم، وأدواتهـم المختلفـة كانـت مخلوقـات "الغـريفن"

Griffin ويأخذ هذا المخلوق الخرافي مـن الأسـد جسـده، ومـن العقـاب رأسـه وجناحيه، وكأن المقصود منه هو مخلوق يسـيطر علـى كبـد السـماء، وغابـات الأرض وجبالها. الشكل (10)

وعلى طبق برونزي عثر عليه في المستعمرة الفينقيـة الشـهيرة كوريـوم، ويعـود للقرن الثامن قبل الميلاد. الشكل (11). نجـد رسـماً محفـوراً لـزوج مـن هـذه المخلوقات بشكل متقابل. تفصل بينهما شـجرة الحيـاة المقدسـة - رمـز عشـتار الربة المقدسة عند السوريين القـدماء عمومـاً - وهـذا التكـوين مشـابه للتكـوين الذي كنت قد ذكرته سابقاً عن المخلوقين الخرافيين بـرؤوس الكبـاش ممـا يؤكـد أن المخلوقات الخرافية في الشرق القـديم أدت دوراً حارسـاً لرمـوز الأم الكبـرى عشتار، ولما تعنيه هذه الرموز من مضامين معرفية وعرفانية.

وقد حفل هذا الطبق المهم الشـكل (11) بـالكثير مـن العناصـر المشـاهد فضـلاً عن المخلوقات الخرافية حيث توضعت المشاهد على ثلاث دوائر متصاغرة.

دائرة مركزية: تضم بداخلها صـراعاً بـين جنـي مجـنح يصـرع سـبعاً بسـيفه وحوله طيور تفرد جناحيهـا بطريقـة اعتـدنا رؤيتهـا فـي الرسـوم الفرعونيـة القديمة.

في الدائرة الثانيـة: صـورت مجموعـة مـن الحيوانـات كالأبقـار، والخيـول، والأسود، فضلاً عن المخلوقات الخرافية، ومشاهد صيد السـباع، وقـد قـام الفنـان أيضاً برسم الأشجار كفواصل بين المشاهد.

في الدائرة الثالثة: وهي الأهـم بالنسـبة لدراسـتنا حيـث نجـد هنـا تنوعـاً فـي المشاهد المهمة ذات التكوين الثلاثي المكـون مـن مخلوقـات خرافيـة متوضـعة حول الشجرة المقدسة Sacred Tree.

وقد تكرر المشهد ثلاث مـرات مـع الحفـاظ علـى مركزيـة الشـجرة المقدسـة وتغير نوعية المخلوقات الخرافية الحارسة في كل مرة.

ففي المشهد الأول: نجـد جـديين جبليـين يرتكـزان بأطرافهمـا الأماميـة علـى الشجرة المقدسة، وهذا المشهد يذكرنا- طبعـاً- بالصـندوق العـاجي الـذي عثـر عليه في مينا البيضا في شمال مدينة أوغاريت. القرن الرابـع عشـر قبـل المـيلاد الشكل(١٢).

في المشهد الثاني: نلاحظ التكـوين نفسـه، ولكـن بـدل الجـديين نجـد سفنكسـاً مجنحاً على يمين الشجرة المقدسـة ويسـارها. الشـكل (13) تفصـيل مـن طبـق كوريوم.

في المشهد الثالث: تم استبدال المخلوقات الخرافية بمخلوقـات خرافيـة مـن نـوع الغريفن griffin مع الحفاظ على التكوين السابق نفسه.

من خلال ما تقدم تتضح لنا الغاية، والفكـرة الكامنـة وراء هـذا التكـوين الثلاثـي ووظيفة الحماية، والرعاية، والحراسة الملقـاة علـى عـاتق المخلوقـات الخرافيـة الفينيقية.

ننتقل إلى السفنكس المصري "أبي الهـول" الـذي يحـرس منـذ مـا يقـرب مـن 4600 عام أهرامات مصر وبوابات فراعنتهـا السـرية، هـذا العمـلاق الحجـري القابع تحت هضبة الجيزة وضعت العديد من المقـولات حـول مـن يختبـئ وراء وجهه الكبير؟

هل هو الفرعون "خفرع" ابن "خوفو" العظيم ؟

وما الهوية الحقيقية لهذا الأسد العجيب الجالس برأس فرعون ؟

ومن أي ذهن نبع هذا العملاق الهجين الساحر؟ وما الهدف من وجوده ؟

طـرح الأثريـون والبـاحثون الألمـان والفرنسـيون مثـل رينـر سـتادلما Rainer Stadelma وفاسـيل دوبريـف Vassil Dobrev مـن المعهـد الفرنسـي للآثار الشرقية في القاهرة عدة نظريات في هذا المجال.

وما يهمنا من كل ذلك: أن الفراعنة لم يبنوا هذا العملاق عبثاً؛ بل كان وراء بنائه بهذه الضخامة مجموعة من الأسباب قد يكون أحدها هو تخليد ذكرى الفرعون الذي أمر ببنائه وقد يكون قد بني بهذه الضخامة للإبهار!! فقد تجاوز طوله 73 متراً، وارتفاعه 20 متراً وهذه الأبعاد تجعل من أبي الهول واحداً من أكبر المنحوتات في التاريخ القديم.

والمثير فعلاً: أن هذا العملاق قد قُد ونحت من صميم الجزء الجيري من الهضبة أي: أنه جزء لا يتجزأ من الصخرة الأم، وهو يرتدي "النيماس" (غطاء للرأس من النسيج عند الفراعنة) وعيناه الواسعتان تنظران في اتجاه الشرق.

تقول الآثارية كريستيان زيغي – كوش: "أن النصف الأعلى من "أبي الهول" يجسد الخاصية الأهم للإنسان ألا وهي الوجه، ولكنه ملتصق بجسد أسد[٧]، وهو ما يكرس مبدأ إلهياً، وهكذا يتجاوز الملك منزلته الإنسانية. وحسب إيزابيل بورديال فإن وثائق الدولة الحديثة في مصر القديمة تبين أن "أبا الهول" كان وثيق الصلة بعبادة الشمس، فقد سمي "شيسب عنخ آتوم" (صورة حية لآتوم) وسمي أيضاً "خبري رع آتوم" الشمس في الشرق، وفي وسط السماء وعند الغروب، إشارة إلى إله الشمس "آتوم -رع" فـ "أبو الهول الكبير هو إذن إلهي الصفة ويمنح من يمثله صفة إله يعيش مرتبطاً بالشمس"[٨].

ومنذ بضع سنوات وبواسطة رسم طبق الأصل- نفذ عن طريق تكنولوجيا الحاسوب- لخريطة السماء في العهود القديمة، أكتشف أن حارس الجيزة كان ينظر في اتجاه مجموعة برج الأسد عند حلول الاعتدال الربيعي من العام 10500 قبل الميلاد. في حين الأهرامات الثلاثة الكبيرة مصطفة على خط النجوم المكونة لحمالة سيف أوريون. لكن هذه النظرية تفترض أن أبا الهول

كان موجوداً في عام 10500 ق.م وهذا ما يرفضـه الآثـاريون، وعلمـاء التـاريخ والآثار بحجة أن هكذا فرضية تبالغ كثيراً فـي المرحلـة الزمنيـة التـي يفتـرض أن أبا الهول قد بني فيه .

وقد جاء عـالم الآثـار الأمريكـي روبـرت شـو Robert Schoch عـام ١٩٨٩ فافترض أن تآكل جسم أبو الهول يعود للأمطار الغزيرة التـي عمـت مصـر فـي الألف السابع قبل الميلاد مما يعني حسـب رأيـه أن حـارس الأسـرار قـد كـان موجوداً في تلك المرحلة؛ وهذه الاستنتاجات قد قوبلت باعتراضات شديدة[٩].

وقد راجت عن هذا العملاق الحجري الكثير من الأسـاطير لكـن أكثرهـا رسـوخاً تلك التي تتحدث عن وجود حجرة تحت مسـتوى الأرض بـين سـاقيه الأمـاميتين متصلة بالأهرامات الكبرى، وربما تكون حجـرة للنقـوش احـتفظ فيهـا الفراعنـة بأسرار ثقافة وعلم اندثرا.

وإن كانت هذه الرواية تدل على شيء فإنهـا تـدل علـى أن المخلوقـات الخرافيـة ولاسـيما السـفنكس منهـا؛ قـد أدت دوراً كبيـراً كحارسـة للكنـوز المعرفيـة والعرفانية، وكحاميـة للبوابـات الملكيـة، والحصـون، والقـلاع بسـبب التـأثير العارم الذي تتركه في نفوس مـن يشـاهدها، وعلـى مـا يبـدو ونتيجـة مـرور العقود والسنين اختفت هذه الكنوز في غياهب التاريخ ولـم يبـق مـا يشـير إليهـا إلا ما تتناقله العامة من حكايات وخرافات يتداخل فيها الواقع بالخيال.

كان أبو الهول الكبير بضخامته غيـر المعتـادة يسـيطر علـى مشـاعر الشـعب المصري القديم بأكمله؛ فهذا الكائن الخرافـي المركـب ذو الأبعـاد غيـر العاديـة والتي تتجاوز كل القواعد المتبعة في نحت التماثيـل؛ يـدهش كـل مـن رآه وهـو يرتفع إلى أكثر من عشـرين متـراً وبطـول 73 متـراً وعـرض 14 متـراً إنـه الأضخم بـين كـل تماثيـل مصـر القديمـة، والـرأس ذو الحجـم المتواضـع لا يتناسب مع حجم الجسد من الناحية الفنية إذْ إن النـاظر إليـه يشـعر بهـذا الخلـل

البسيط ولا أعرف إن كان هذا الخلل متعمداً، أم أن حجم صخرة الهضبة لم تساعد النحاتين على ضبط التوازن الدقيق والخاضع لقواعد فن النحت المصري القديم.

وهذا العمل الفني ينتمي إلى تقاليد الدولة القديمة الفنية التي دأبت في إقامة النصب العملاقة مثل الأهرامات الثلاثة (خوفو، خفرع، منقورع).

تقول الآثارية ناصرة زيد وزميلتها إيزابيل بورديال في مقالة لهما بعنوان "أبو الهول الكشف عن وجهه الحقيقي"[١٠]: (إنه في وسط الهضبة الكبيرة التي استخرجت منها الكتل المخصصة لبناء الأهرامات ومعالم أخرى في الجيزة، قاموا أولاً بعمل حفرة عميقة على شكل U تحيط بقطعة ضخمة من الصخر، ثم من هذه الصخرة نُحت التمثال).

ومن الملاحظ أن الأرجل الأمامية شيدت بأكملها من الطابوق التقليدي أما باقي أبو الهول فقد نحت من الحجر الجيري الذي يشكل جزءاً لا يتجزأ من الهضبة الصخرية.

ورغم شهرته الواسعة فإن الحجر الذي نُحت منه أبو الهول يعد من الأحجار الهشة.

ومن الأمور الفنية الأخرى المتعلقة بهذا السفنكس أيضاً أن رأسه من الأعلى كان مزيناً بـ "الأوريوس" (أفعى الصل). وهو شعار ملكي للفراعنة بقيت أجزاء ظاهرة منه.

ويلاحظ موقع اللحية المستعارة التي اكتشف جزءاً منها في أثناء حفريات "كافيليا" Cavielia في عام 1863م وطولها سبعة أمتار[١١].

ويقول بليني القديم (Pliny, the Elder (AB 23-79): إن أبا الهول كان مطلياً بأكمله بالألوان (الوجه والجسم باللون الأحمر والنيماس باللونين

الأزرق والأصفر). كما هو الشـأن فـي فـن صـنع التماثيـل لـدى المصـريين القدماء.

بالنسبة إلى أنف أبي الهول المندثر قدمت عـدة احتمـالات أحـدها يـذهب إلـى أن الأنف أصيب بقذيفة مدفعية في أثناء إحدى المعـارك التـي حـدثت بجـوار هـذا التمثال.

وافتراض آخر يقول: إن الأنف أتلفه عن عمد المماليك فـي القـرن السـابع عشـر الميلادي. غير إن بعض المصادر العربيـة تـذكر أن الأنـف كـان مهشـماً فـي القرن العاشر الميلادي.

والاحتمال الثالث: استند إلى دراسة أثرية قـام بهـا مـارك لهنـر Lehner عـالم المصريات الأمريكي أكد فيها وجود آثار تحطـيم بواسـطة آلات يرجـع إلـى مـا بين القرن الثالث والقرن العاشر.

وإذا كان كلام لهنر صحيحاً فما قصـة الاعتـذار الشـهير الـذي قدمـه نـابليون بونابرت للشعب المصري بعد إصابة أبي الهـول بقذيفـة مدفعيـة فرنسـية والـذي (أي الاعتذار) تحدثت عنه الكثير من المصادر ..!؟

وقد عثر على الكثير من تماثيل أبي الهول الصغيرة والتـي تعـود إلـى عـدد مـن الفراعنة الذين أرادوا أن تنحت بعض تماثيلهم علـى شـكل أبـي الهـول الكبيـر، فقد طلب (بيبي الأول) و(ميـرن رع) مـن ملـوك الأسـرة السادسـة تصـويرهم على هيئة أبي الهول.

واسـتمرت صـورة الأسـد الملـك حيـة وحاضـرة فـي الدولـة الوسـطى (2033_1710) ق.م.

ولاسيما لدى ملـوك الأسـرة الثانيـة عشـرة (1963__1786) ق.م مثـل الملـك سيزوستريس الثالث (1862_1843) ق.م و الموجـود حاليـاً فـي متحـف المتـرو بوليتان _نيويورك.

ولعل آخر ملوك الفراعنة الذين طلبوا نحتهم على هيئـة أبـي الهـول كـان الملـك امـازيس (570_525) الشـكل (١٤) ،فهـل كـان هدفـه الإيحـاء بأنـه حـارس الأسرار والعقيدة حامي البلاد، والحدود، والمؤتمن علـى اسـتمرار الحيـاة لشـعبه والواقف أبداً على بوابات الـبلاد لـرد الأرواح الشـريرة، والغـزاة وإنـه الرمـز الحي لأبي الهول الكبير.

أخيراً نقول:

إن الناظر إلى أبي الهول يستشعر الغموض الذي يكتنـف هـذا العمـلاق الحجـري ذا الرأس البشري والجسد الأسـدي.. وإن القـوة التـي تشـع مـن هـذا المـارد والسكينة العجيبة له لهي شـيء محيـر ولكأنـه مكلـف بحراسـة سـر دفـين أو أسرار دفينة لها حرمتها.

إن المخلوقات الخرافية في الشرق القديم من "اللاماسـو" والجنيـات المجنحـة فـي آشور إلى الغريفن والكبـاش المجنحـة والسـفنكس الأنثـوي فـي سـورية إلـى أبي الهول المصري في وادي النيل لم تكـن إلا جبـابرة عظيمـة معنيـة بحراسـة كنوز هذا الشرق المعرفية والعرفانيـة، وحراسـاً للعقائـد والأسـرار والأسـاطير حراساً لبوابات هذا الشرق العظيم.

ملحق الصور

اللاماسو الأشوري - القرن السابع قبل الميلاد

الشكل (١)

اللاماسو الآشوري. ثور ضخم مجنح من الألباستر برأس إنسان وبلحية مكونة من خصل من الشعر المعقوص بعناية فائقة، وقد عثر على هذا اللاماسو على مداخل بوابة خرائب قصر سرجون الثاني ويعود لـ 721-705 BC.

ويبلغ ارتفاعه زهاء ٥ أمتار ووزنه زهاء ٣٠ طناً وهو محفوظ حالياً في متحف اللوفر.

شكل (٢)

إفريز قرميدي من واجهة معبد كارايينداش في أوروك المخصص للآلهة اينين.

ويضم المعبد مجموعة من المشاكي وتضم كل مشكاة إلهاً أو إلهة بعمامة ذات قرون وتنورة طويلة.

ويعود بناء المعبد إلى المرحلة الكاشية من القرن السادس عشر قبل الميلاد



الشكل (٣)

الروح الحارسة Protective magical spirit

عثر على هذه اللوحة التي تمثل الروح الحارسة أمام شجرة الحياة في خرائب نمرود في القصر الشمالي الغربي. الغرفة رقم (١) لوحة رقم ١٧ وقد قام بعرضها أول مرة في لندن W. Howard Esq

وأبعادها كالآتي:

الارتفاع ١٤١ سم – H

العرض ٩٥ سم – W

السماكة ٤ سم – Extant th

وقد حفظت في المتحف البريطاني بـ لندن بعنوان

WA 102487. Layard 1849: 1.387. Paley and sobolewskl 1987. 17. P1. 1.



شكل (٤)
السفنكس السوري المزدوج – عثر عليه في الشمال من سورية
وهو محفوظ حالياً في متحف اسطنبول



شكل (٥)
سفنكس فينيقي بوجه امرأة وجسم أسد وجناحي نسر وعلى رأسها التاج المصري المزدوج عثر عليه في مستعمرة ايبيتزا الفينيقية (Ibiza) من الفخار وطوله زهاء ١٢ سم وهو محفوظ حالياً في المتحف الأركيولوجي في مدريد-إسبانيا



شكل (٦)

سفنكس فينيقي مع تأثيرات مصرية يمثل وجه رجل ملتحٍ ويعتمر تاج مصر الموحدة والنيماس الفرعوني، وهو جزء من قطع تزيينية لأحد المدافن الفينيقية في قبرص، وهو مصنوع من العاج الفاخر، ويبلغ ارتفاعه ١٦ سم ويعود للقرن التاسع ق.م وهو محفوظ في متحف قبرص الوطني. نيقوسيا.



شكل (٧)

قطعة عاجية من أرسلان طاش تمثل مخلوقين خرافيين متقابلين تفصل بينهما شجرة الحياة المقدسة Sacred Tree ويعود تاريخه إلى النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد. وهو محفوظ في متحف حلب الوطني.



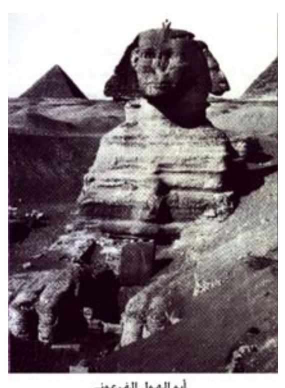
شكل (٨)

سفنكس فينيقي ذو نقش بارز يعود تاريخه إلى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، عثر عليه في جزيرة أرواد وهو مصنوع من الألباستر وأبعاده ٦١ سم طولاً و٣٢ سم عرضاً

يمثل سفنكساً فينيقياً مجنحاً ويعتمر التاج المصري الكامل رمز مصر الموحدة. وتزين هذا التاج من الأمام أفعى الكوبرا الشهيرة.

وهذا العمل الفني محفوظ في متحف

اللوفر- باريس



شكل (٩)

أبو الهول عملاق حجري برأس إنسان يغطي (النيماس) رأسه فضلاً عن الأفعى التي درج الفراعنة على تزيين رؤوسهم بها فضلاً عن اللحية المستعارة. التي وجدت بقاياه تحت الرمال وكانت بطول سبعة أمتار.

أبعاده تراوحت بين ٧٣ متراً طولاً و٢٠ متراً عرضاً.

وهو بذلك عملاق صخري بكل المقاييس.



شكل (١٠)

المخلوق الخرافي الفينيقي الغريفن Griffin

وقد عثر على هذه القطعة العاجية ضمن مجموعة من العاجيات ضمن خرائب مدينة نمرود القديمة.

ويبلغ ارتفاعها ١١.٧٠ سم وهي محفوظة في متحف تاريخ الفنون في بروكسل



شكل (١١)

طبق برونزي عثر عليه في المستعمرة الفينيقية الشهيرة "كوريوم" ويعود للقرن الثامن قبل الميلاد ويضم عدداً كبيراً من المشاهد والمواضيع التي عرف الفينقيون بتصويرها على مختلف الخامات من عاج وعظم وأحجار كريمة ومعادن متنوعة.



شكل (١٢)

غطاء صندوق عاجي عثر عليه في مينا البيضا- أوغاريت وتميل عليه عناة الربة المقدسة في أوغاريت مع الجديين وتعود هذه القطعة إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وهي محفوظة في متحف اللوفر.



شكل (١٣)

تفصيل من طبق كوريوم البرونزي



شكل (١٤)

أبو الهول هذا يرجع عهده إلى مرحلة تاريخية متأخرة

وهو يمثل الفرعون أمازيس ٥٢٥-٥٧٠ ق.م

من الأسرة السادسة والعشرين الذي أعاد عبادة التماثيل الملكية إلى ما كانت عليه

المراجع

١) زهدي بشير: علم الجمال والنقد، فلسفة الجمال، ص٢٨، منشورات جامعة دمشـق ١٩٩٩-٢٠٠٠م.

2) غافليكوفسكا كريستينا: الفن في بلاد ما بين النهرين- ترجمة الدكتور كبرو لحدو- ص١٥٠- دار الينابيع- دمشق .١٩٩٥

3) غافليكوفسكا كريستينا: الفن في بلاد ما بين النهرين- ترجمة الدكتور كبرو لحدو- ص١٥٩- دار الينابيع- دمشق .١٩٩٥

4) Jeremy black – Anthony Green: Gods, Demons and symbols of Ancient Mesopotamia, London University, 1992, p115.

5) Art and empire – edited J.E. Cortis and J. E. Reade published by British Museum press, 1995. P40.

6) كونتنو جورج: الحضارة الفينيقية، ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، مراجعـة طه حسين، ص١٥٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.

والعنوان الأصلي للكتاب: La civilisation phenicienne by G. Contenau

7) Ezabel Bordial and Nasera zoyd: Sphinx son vrai visage devoile – science & vie – Mars 2005.

8) مقال (أبو الهول والكشف عن وجهه الحقيقي): بقلم ايزابيل بورديال وناصرة زيد، ترجمة المنصف الشنوفي، مراجعة ليلي بدر، نشر في مجلة الثقافة العالميـة، العـدد ١٤٢، مايو .٢٠٠٧

9) Ezabel Bordial and Nasera zoyd: Sphinx son vrai visage devoile – science & vie – Mars 2005. p142.

10) Sphinx son vari visage dévoilé.

ونشر في مجلة Science & Vie عدد آذار (مارس) 2005

11) مقال بعنوان (أسرار نصب مهيب): بقلم ناصـرة زيـد، ترجمـة د. المنصـف الشنوفي، مراجعة ليلى بدر، مجلة الثقافة العالمية، العدد ١٤٢، مايو ٢٠٠٧، ص٥٥.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق: ٢٠٠٧/١٠/٢١.